ســـــلافان

محنة الفردية في الأدب المعاصر (*)

للأستاذ شكري محمد عياد

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

ويعود سلافان إلى وحدته المريرة اللذيذة ، ويستدير أعوامه بعين ، وقد شغل بتحديد وجهته في الحياة ، فهو يقول عن نفسه في تيك الأعوام : « أربعون سنة ولم أفعل شيئاً : ولومت المساء ما استحققت أن يذكر اسمي على لسان ، ولا أن تبقى لي في ذاكرة . ليتني لا أموت هذا المساء ! دعاء أرفعه إلى السماء ، أو قل إنني أسأل القدر ، مادمنا لا نعرف غيره ، فما أظن الدعوة الحارة لا تجد صدى ولو لفظت في الصحراء » . وهو في أمره كله ويقابله على جميع وجوهه ، حتى إذا استقبل الأول بعد الأربعين كان قد استقر عزمه على أن يتأله ، ليكون قديساً ، فهو يبدأ « يومياته » ليسجل خطواته في هذا السبيل .

ولكنه لا يؤمن بالدين ، فهو لا يريد أن يكون قديساً مسيحي الكنيسة ، بل يريد أن يحيا حياة القديسين ، يريد أن يلتذ الفضيلة ، يريد أن يرفع الفضائل النفسية — في ذاته — إلى أوج من العظمة . وهو يرى أنه بهذا يفي بحاجة من حاجات العصر : حاجته إلى قديسين ، فقد كان لكل عصر قديسوه ، ولكنه لا يرى لهذا العصر قديسين .

ويأخذ في جهاد نفسه جهاداً منظماً ، يدونه في « يومياته » ليخرج من معركة من هذه المعارك النفسية وجد نفسه مريضاً مستغلاً ، أو محتقراً . . ووجد أنه لم يبلغ من فضائله المنشودة شيئاً . وذلك لأن قديسي العصور القديمة كانوا يمارسون فضائلهم مبنية على إيمان وثيق بالله واليوم الآخر ، كانوا يعتقدون أن الله معهم ، وأن الله معهم ، فكان في أعمالهم ثقة واطمئنان وجلال . أما هو فلا يؤمن بقوة خارج نفسه ، ولا يبحث في جهاده إلا عن نفسه ، فضائله تبدو سخيفة مضحكة ، إذ يوزنها الوسط الذي لا تنشط إلا فيه ، وكأنما هو رجل يحرك شفتيه بالغناء فلا يتجاوز غناؤه حنجرته .

ويتمنى سلافان أن يؤمن ، ويرتاد الكنائس ، ويعترف ، ولكنه يحس في هذه التجارب كلها شيئاً من الصدق . إنما هي حركات وأقوال لا تصدر من قلوب قائليها ، ولا تصل إلى قلوب سامعيها . هي أشبه بالبقايا المتحجرة من عصور إنسانية بائدة . ويكتب إلى قس بروتستنتي يسأله النصح لروح ضالة ، فيكتب إليه كتاباً موجزاً ذا رقم وتاريخ ، ويحدد له ساعة يلقاه فيها بعد أسابيع ... ويقابله في مكتب كمكاتب رجال الأعمال ، وإذا هو أمام قس يرشد الأرواح الضالة « بالجملة » ، على طريقة الإنتاج بالجملة ، ويرد الإيمان إلى النفوس الحائرة بأحدث أساليب التحليل النفسي .

لا يستطيع سلافان ، إذاً ، أن يكون قديساً . وتنتهي هذه التجربة الأليمة بمرض طويل في مستشفى مجاني ، دخله على أثر حمى أصابته لأنه قدم معطفه وحذاءه — في الشارع وفي ليلة من ليالي الشتاء — إلى أفاق لئيم ، لم يجد ما يعطيه إياه ، فآثر أن يقدم إليه كساءه على أن يحتمل نظرة الشك التي صوبها إليه .

ويخرج سلافان من المستشفى وقد كسبته هذه التجربة نوعاً من الهدوء ، ولكنه ما زال يبحث .. يبحث بالمعنى المطلق لهذا الفعل ، كما يقول . ويهديه البحث إلى « نادي شارع ليونيه » ، وهو ليس بناد على الحقيقة ، إنما هو حانوت إسكاف فقير يجتمع فيه بعض الشيوعيين الثوريين الذين يدعون إلى مجتمع جديد . يجتمعون فيه خفية حيث يتباحثون في مشاكلهم ويدبرون أمورهم ، وإن كنا لا نعرف ماذا يدبرون بالضبط لأننا نراهم بعيني سلافان ، وليس سلافان واحداً منهم وإنما هو في اصطلاحهم « عاطف » وكما يقول أحدهم : « من أولئك المثقفين الذين ينزلون إلى الشعب . طراز ١٩٠٠ » . فهم لا يطلعونه إذاً على كثير من أسرارهم ، ولكنه يفهم أنهم يطمحون إلى حياة أسعد ، وبراهم يعيشون عيشة خشنة ، ويعلم أنهم يلاقون ألوان

(*) مقدمة لقصة « اعتراف منتصف الليل » لجورج دوهامل — عربية تظهر قريباً .

الاضطهاد ، ونفسه تزاعة إلى السمو ، ذواقة للألم ، فبينما هو يفكر أن يأتي بنفسه في تلك الدار ، يعلم من أمرهم ما لم يكن يعلم ، فهم ثوريون فنيون ، لا يبالون كثيراً بالفرد ، لأن همهم تغيير المجتمع ، وإنما يأتي صلاح الفرد بعد صلاح المجتمع . عندئذ تنفر منهم فرديته فيقول لهم : « إنني لا أسمح لنفسي بانتقادكم ، وأغلب ظني أنكم ما دمتم مقدمين على هذا الأمر فثم ما يدعوكم إلى ذلك . ولكنكم تستطيعون أن تغيروا ما يسمى النظام ، وتستطيعون أن تخلقوا الطبقة الحاكمة ، تستطيعون أن تغيروا كل شيء ولكنكم إذا لم تغيروني أنا — أنا سلافان مثلا — فإنكم لم تغيروا شيئاً ! »

فإذا سأله سائل منهم : « ولماذا تلح هكذا في تغيير نفسك ؟ » أجاب في صوت خفيض ولكنه واضح يسمعه الجميع : « لأني .. لأني جبان » .

ويعكف وحده على هذه الفكرة يديرها في نفسه حتى ينتهي فيها إلى نوع من الفلسفة . إنه يريد أن يغير روحه ، ولكن ليس في ذلك شيء من الغلاظة ولا تكليف الأمور غير طبائعها ، بل إنه تجربة معقولة . فروحه ليست إلا أربعين سنة من الحوادث والأفكار والإشارات والأقوال . إنها الحي الذي يعيش فيه ، والمنزل الذي يسكنه ، وملابسه وأثاث بيته ، وزوجه وأمه العجوز . إن ما يسميه روحه هو ذلك العالم المألوف الذي يضغط عليه ويخنقه ، والذي يريد هو أن يرفعه عن عاتقه ويطوح به ...

ولكن سلافان لا يفارق أصحابه الثوريين حتى يدهمهم البوليس ويقضي ليلته في السجن . ويعود إلى داره في صبيحة ذلك اليوم ليجد أمه تهلك أسى ...

كأنما انفسح له المجال لينفذ مشروعه الجديد ، فهو يودع زوجته بخطاب قصير ، ويمضي ليجرب أن يكون رجلا آخر غير سلافان . وقد تعلم هذه المرة ألا يطمح إلى أعمال رائعة . . . لن يحاول أن يكون قديساً ، بل يكفيه أن يكون إنساناً ، يخفف آلام المنكوبين من البشر ، وما أكثرهم ! فنراه في القصة الأخيرة « كما هو » يعيش في الجزائر باسم « سيمون شافجران » ، وكيلا لشركة « فونوغرافات » ، وقد حلق لحيته واستبدل بنظارته المدنية هو بنات ذهبية الإطار ، وأصبح يحظى بإجلال عارفيه لأنه لا يفتأ يضرب الأمثال على تضحيته وإيثاره وحبه للانسانية . فهو قد أنقذ صبية صغيرة من بين عجلات القطار في مرسيليا ، وقد تبرع بدمه لجريح ، وتطوع لتمريض المصابين بالطاعون . ثم هو يرعى خادمه « مختاراً » ويعلمه القراءة والكتابة ويحاول أن ينتبه عما هو منغمس فيه من قبيح العادات . إذن فقد أصبح يمارس أعمال الخير حقاً ، ولم يعد يجرب اكتساب الفضائل بطرق خيالية . ولكنه على ذلك كله غير راض عما يفعل ! لماذا ؟ إنه غير مجرد من كل تفكير جماعي ، فلعله يرى أن طيبته وإنسانيته لم تخففا شيئاً من آلام الناس . ولكنه لم يقدم على هذه التجربة الكبيرة لينقذ الإنسانية ، بل أراد أن ينقذ الإنسانية في نفسه أولا ، بأن يكون إنساناً فاضلا فيما يأتي وما يدع ، عن سليقة وعادة لا عن تفكير وإرادة . وهو يرى أنه لم يبلغ من ذلك شيئاً . فهو يرتد ثانية إلى نفسه ، ويصارح صاحباً له : « كيف يستطيع المرء ألا يكون إلا ما هو ؟ وكيف يحاول أن يكون غير ما هو بغير أن يصيبه الجنون ؟ »

هو إذاً لم يتقدم خطوة منذ فكر أن « يغير روحه » . ولكنه يتعلم شيئاً واحداً : يتعلم « أن العمل الطيب إنما هو ثمرة تفكير يوازن ويختار . أنه النتيجة الثابتة الرائعة لصراع باطني كبير » . وتدخل هذه الحكمة على نفسه شيئاً من الهدوء . . . فهو يستطيع إذاً أن يصل إلى السلام النفسي الذي ينشده عن طريق هذا الصراع الباطني الوجه دائماً نحو غرض طيب .

وتأتي نهاية سلافان في عمل من هذه الأعمال الطيبة .

قتل خادمه مختار رجلا إيطالياً برصاصة مسدس ، وكان سلافان يستطيع — بشيء من حضور الذهن — أن يمنع الحادث ، ولكنه لم يفعل ، واعتصم الخادم بقبو المنزل . فسار إليه سلافان يصرع إليه بأن يخرج ويعده أن يدافع عنه ، وإذا بالخادم يرديه بطلقة من مسدسه .

عمل من أعمال الطيبة ! عمل يودي بصاحبه دون جدوى ولكنه يأتيه بالسلام النفسي الذي ينشده ، لأنه انتصار على تردد النفس وجبنها ، ومواجهة للجهل والظلم والشر ، ولأنه لطف